معاني التقديم والتأخير في توجيه الحكم النحويّ في تفسير الخطيب الشربيني ت977

لطيفه محمد يوسفان*

(الإيداع: 16 تموز 2024، القبول: 4 آيلول 2024)

الملخص

يسعى هذا البحث إلى دراسة العلاقة بين التقديم والتأخير والنحو في تفسير الخطيب الشربيني "السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير" دراسة نحوية بلاغية تفي بالغرض المقصود.

بدأ البحث بتعريف علم النحو والتقديم والتأخير لغة واصطلاحاً، ثمّ ذكر المعاني المتحصّلة من بيان إعراب تقديم ما حقه التأخير والعكس، فقد هدف الشربيني في تفسيره إلى توظيف النحو في خدمة المعنى؛ وذلك ليسهل على القارئ فهم الآيات بأسلوب علمي فذّ، فكان الخطيب الشربيني واحداً من النحاة الذين سعوا إلى تفسير كتاب الله تعالى، وإبانة معاني الآيات من خلال الربط بين النحو وعلم المعاني، وقد بيّنت ذلك من خلال دراستي الربط بين التقديم والتأخير والمعاني النحويّة البلاغيّة الناجمة عنهما في الآيات.

الكلمات المفتاحية: الخطيب الشربيني، التقديم، والتأخير، النحو، التفسير.

*قائم بالأعمال – اختصاص نحو و صرف – قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة حماة

The meanings of adduction and delaying in directing the synatactic judementin in Al Khateeb Al Sharbenys explanation.

Latifa Mohammad Yousfan.*

(Received: 16 July 2024 , Accepted: 4 September 2024)

Abstract:

This research aims to study the relation between adduction, delaying and syntax in Al khteeb Al sharbeny explanat : Al serage Al moneer in Understanding the Meaning of words of Al loh Al hokeem Al khabeer . It is asyntactc and rhetaricd Study Which gives the target Synntax , adduction and delaying in ling wistie and idamatic way , then reffering to the meonigs which explas the syntax of the adduction which should delaed and the opposite is right .

Al sharbeny has ainud in his explanat on to employ the to clarfy the meaning which faciltales the reads to understand the verscs in ascientific style . Alsharbeny was one of the grammar . ans who aimed to explair the Quran and the verses by connecting between syntax and semantics Iclarify all these paints in my study which explains the connection between adduction , delaying and syntax in Al quran

Keywords; Al kateeb Al sharbeny – adduction – and delaying – syntax – explanation

*Charge d'affaires – Specialization in Grammar and Disbursement – Arabic Language Department – Faculty of Arts and Humanities – Hama University.

المقدمة:

يرتبط علم النحو بالبلاغة، فكلّ منهما متمّم للآخر، ولهما الفضل في إبراز مكانة اللغة العربيّة ومزاياها، فالعلوم العربيّة لم تنشأ مستقلّةً فيما بينها؛ وإنّما جُمعت في مؤلّفات بعضها كانت واضحة المعالم وبعضها الآخر كانت أشتاتاً وأفكاراً يُشار إليها، ثمّ أخذت العلوم تتميّز بعضها عن بعضٍ مع مرور الزمن؛ حتّى استقلّ كلّ علمٍ بموضوعاته، ومؤلّفاته، ومع ذلك بقيت العلاقة بين علوم اللغة مستمرّةً كما هو الحال بين النحو والبلاغة.

فالبلاغة تبدأ من حيثُ ينتهي النحو، فهو أساسها وجذورها العميقة؛ إذ يبحث النحو في استقامة الأساليب وصحّتها، وتبحث البلاغة في المعاني الخبيئة والأسرار الدفينة، وتكشف عن الإيحاءات الكامنة وراء كلّ لفظ وجملة وتركيب[1].

ومن المشهور المتعارف أنّ الهدف الأساسي للنحو هو تحديد معايير صحّة التراكيب، وأمّا البلاغة ولا سيما علم المعاني، فوظيفتها الأساسيّة البحث في جماليّة التركيب أو إعجازه الناجمة عن مختلف خصائصهما الحذف والذكر والتقديم والتأخير والتعرف والتنكير والمطابق، وفي هذا البحث نعنى ببيان بلاغي التقديم والتأخير في توجيه الحكم النحوي في تفسير الخطيب الشربيني.

نشأة التقديم والتأخير:

برزت عناية النحاة الأوائل بالاهتمام بهذا المصطلح، حيثُ تنبّهوا على أنّ الجملة العربيّة لا تتميّز بحتميّةٍ في ترتيب أجزائها، إلّا أنّهم تركوا لنا رتباً تُحفظ، والعدول عنها يُمثّل الخروج عن اللغة النفعيّة إلى اللغة الإبداعيّة[2].

ويبدو أنّ سيبويه قد أشار إلى التقديم والتأخير إشارة، فلم يفرد له فصلاً، وربطه بالعناية والاهتمام؛ فقال: "كأنّهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم" [3].

وقد أشار عبد الفتّاح لاشين إلى أنّ عبد القاهر الجرجاني قد وجّه اللوم إلى سيبويه؛ لأنّه لم يتغلغل في معرفة دقائق الكلام، والفروق بين التراكيب بذكر، فقد لمّح سيبويه إلى التقديم والتأخير باختصار، فلم يُفرِد له فصلاً، وربطه بالعناية والاهتمام؛ يقول عبد القاهر الجرجاني: واعلم أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً – يجري مجرى الأصل – غير العناية والاهتمام قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنّهم إنّما يُقدّمون الذي بيانه أهمّ، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم [4].

والجدير بالذكر هو أنّ أوّل مَن التفت إلى هذه المسألة من النحاة ابن جنّي؛ فأفرد فصلاً في خصائصه بعنوان (فصلٌ في التقديم والتأخير)، مبيّناً فيه ما جاز تقديمه وما لا يجوز تقديمه، وقد اكتفى فيه بذكر المفعول به والفاعل[5].

وقد أدرك البلاغيّون أنّ باب التقديم والتأخير يخصّهم أكثر من سواهم؛ لأنّ المعنى والدلالة من أوائل اهتماماتهم، فانبروا يجمعون شتات هذه الدقائق والجماليات الذوقيّة، فوضعوا لها باباً منفرداً ضمن مصنّفاتهم؛ وأوّلهم المؤسّس لعلم المعاني عبد القاهر الجُرجانيّ، فقد تناول هذا الباب بالشرح والتفصيل؛ فيقول: "هذا بابٌ كثير الفوائد، جمُّ المحاسن واسعُ التصريف، بعيدُ الغاية، لا يزالُ يفْترُّ لك عن بديعةٍ، ويفضي بك إلى لطيفةٍ، ولا تزال ترى شِعْراً يروقك مسمعُهُ، ويلطف لديك موقعُه، ثمّ تنظر، فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك، أن قُدّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكانٍ"[6].

---

[1] ينظر: أثر المعنى النحوي في توجيه المعنى البلاغي 5.

[2] ينظر: البلاغة والأسلوبيّة 329.

[3] الكتاب 1/ 34.

[4] التراكيب النحويّة 140، ينظر دلائل الإعجاز 107 وما بعدها، والكتاب 1/ 34.

[5] ينظر: الخصائص 2/ 382

[6] دلائل الإعجاز 106.

وتبع الزمخشري عبد القاهر الجُرجانيّ في التدقيق في هذا الباب والتمعّن في خباياه، وكان ممّن يُشهد له هذا التعمّق وبُعد الدراية فيه، فنراه يُفصّل ويُوضّح ويُؤكّد في كلّ مثالٍ بعُد غوره في هذا المجال، وهذا يتّضح جليّاً في تفسيره (الكشّاف)، وقد نهج منهجه الخطيب الشربينيّ، فكان هذا واضحاً في كثير من توجيهاته وترجيحاته، فقد حاول إبراز الأسباب والدوافع وراء مخالفة نظام الجملة العربيّة بتقديم ما حقّه التأخير أو العكس، ويعلّل ذلك بأغراض دلاليّة معيّنة[1].

مشكلة البحث :

تكمن صعوبة البحث من اتساع موضوع الدراسة، وتشابك المادة النحوية مع علم المعاني، فضلا عن عبارات الخطيب الشربيني المختصرة، وكثرة نقوله عن الزمخشري .

أهمية البحث :

تأتي أهمية البحث في توظيف التقديم والتأخير للتخفيف من ثقل المادة النحوية المتمثلة بالظواهر الإعرابية وتعليلات النحاة المنطقية والفلسفية على القارئين والدارسين لتفسير كلام الله تعالى.

أهداف البحث وأسئلته:

يهدف البحث إلى :

1- توضيح أهمية العلاقة بين التقديم والتأخير والنحو .

2- إظهار وظائف التقديم والتأخير وأهميته في السياق النحوي .

3- جمع ما تفرق من نكت ومعان مستفادة من التقديم والتأخير لنعيد للمادة النحوية وظيفتها الحقيقية في خدمة النص القرآني .

وللإجابة عن مجموعة من الأسئلة تتبادر إلى الأذهان؛ نذكر منها :

1- ما مدى أهمية ربط التقديم والتأخير بالمادة النحوية ؟ وما تأثير ذلك في القارئين لكتاب الله تعالى ؟

2-ما هي الجهود التي قدمها الخطيب الشربيني في علمي النحو والمعاني في تفسيره لكتاب الله تعالى؟

3- ما مدى تأثر الخطيب الشربيني بالزمخشري في توظيفه للتقديم والتأخير في خدمة المادة النحوية في تفسيره ؟

فرضيات البحث وحدوده :

يدرس هذا البحث علاقة التقديم والتأخير بعلم النحو، والمعاني المستفادة من تضافرهما، ولم يتعرض البحث للفصول الأخرى من علم المعاني كالحذف والذكر والقصر؛ لأنها تحتاج إلى دراسات مستقلة بذاتها .

منهج البحث :

اقتضت طبيعة البحث الاعتماد على المنهج الوصفي الذي يعتمد على التحليل والتذوق والدراسات الجمالية .

الدراسات السابقة :

1- أثر التقديم والتأخير في المعنى عند النحويين، لطفي عمر بن الشيخ أبو بكر، جامعة حضرموت، اليمن .

2- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، محمد حسنين أبو موسى، جامعة الأزهر، دار الفكر العربي، القاهرة .

3- التقديم والتأخير بين النحو والبلاغة، رسالة ماجستير، مي الأحمر، الجامعة الأمريكية، بيروت، 2001 م .

4- التقديم والتأخير عند النحاة وشواهدهما من القرآن الكريم، رسالة ماجستير، أحمد فرجي،اجامعة تلمسان، الجزائر، 1993 م .

[1] ينظر: الأوجه البلاغيّة والدلاليّة في تفسير الكشّاف 136.

5- علاقة علم البلاغة بعلم النحو، سيد فضل الله ميرقادري، فاطمة تقي زاده، جامعة شيراز، إيران مجلة الباحث، العدد 13، 2013 م .

6- معاني النحو، فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، ط1، 2000م.

مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائيّة:

تعريف النحو لغة :

جاء في معجم مقاييس اللغة: "النون والحاء والواو كلمة تدلّ على قصد، نحوت نحوه، ولذلك سمّي نحو الكلام؛ لأنّه يقصد به أصول الكلام فيتكلّم على حسب ما كان العرب تتكلّم به"[1].

وجاء في لسان العرب: "القصد والطريق، إنّما هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره"[2].

تعريف النحو اصطلاحاً :

عرّف العلماء النحو تعريفات كثيرة، ومن أشهرها ما جاء في معجم التعريفات: "هو علم بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرها، وقيل النحو: علم يعرف به أحوال الكلم من حيث الإعلال، وقيل علم بأصول يعرف بها صحّة الكلام وفساده"[3].

تعريف التقديم لغة :

"القاف والدال والميم أصل صحيح يدلّ على سبق ورعف؛ يقولون: القدم خلاف الحدوث، ويقال شيء قديم إذا كان زمانه سالفاً"[4] .

وجاء في لسان العرب: القدم : العتق مصدره القديم، والقدم نقيض الحدوث، والقدّام نقيض وراء، وقيدوم كلّ شيء : أوّله. القدم والقدمة : السابقة في الأمر يقال : لفلان قدم صدق؛ أي : أثرة حسنة . قال ابن بري : القدم التقدم"[5].

تعريف التأخير لغة :

جاء في معجم مقاييس اللغة : "الهمزة والخاء والراء أصل واحد إليه ترجع فروعه وهو خلاف التقدم"[6]

وجاء في لسان العرب: "والتأخّر ضد التقدم، والتأخير ضدّ التقديم، ومؤخّر كلّ شيء خلاف مقدّمه، يقال : ضرب مقدّم رأسه ومؤخّره"[7].

تعريف التقديم والتأخير اصطلاحاً:

إنّ التقديم والتأخير في الاصطلاح مرتبط بمعناه اللغوي السابق، وقد عرف الزركشي التقديم والتأخير فقال: "هو أحد أساليب البلاغة، فإنّهم أتوا به دلالة على تمكّنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق"[8].

دلالة التقديم والتأخير في إعراب الآيات القرآنيّة:

إنّ التقديم والتأخير في هذا البحث شمل نوعان:

---

[1] معجم مقاييس اللغة 403/5.

[2] لسان العرب مادة/ نحو/ 310/15.

[3] ينظر: معجم التعريفات 202.

[4] معجم مقاييس اللغة 65/5.

[5] ينظر: لسان العرب مادة /قدم/ 465/12- 471، والقاموس المحيط 177/8، وكشاف اصطلاحات الفنون 1305/2.

[6] معجم مقاييس اللغة 70/1.

[7] لسان العرب مادة /أخر/ 12/4 .

[8] البرهان في علوم القرآن 233/3.

1– التقديم بين جزئي الجملة؛ المسند والمسند إليه.

2– التقديم في المتعلقات ويشمل؛ أ– تقديم المتعلّقات على العامل ب– تقديم بعض المتعلّقات على بعض.

وقد تعدّدت المقاصد الدلاليّة لظاهرة التقديم والتأخير بين هذين النوعين وذلك حسب المقام اللغوي والموقف الكلامي التي يقتضيها؛ ومن الأغراض التي أفادها:

1– الاختصاص: وهو الأكثر وروداً في معاني التقديم والتأخير بين العامل والمعمول، ولا سيما تقدم الظرف عن موضعه [1]، وقد وافق الشربيني في ذلك مذهب الزمخشريّ، ومنه ما جاء في توجيهه قول الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1]، فيقول: "والباء في بسم الله متعلّقةٌ بمحذوفٍ بسم الله أقرأ...، فإن قيل: المصدر لا يعمل محذوفاً.

أُجيب: بأنّه يُتوسّع في الظرف والجارّ والمجرور ما لا يتوسّع في غيرهما، وتقديره مؤخّراً كما قال الإمام الرازيّ أولى كما في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]؛ لأنّه أهمُّ وأدل على الاختصاص، وأدخلُ في التعظيم، وأوفقُ للوجود، فإنّ اسمه تعالى مقدّمٌ ذاتاً؛ لأنّه قديمٌ واجب الوجود لذاته فقُدّم ذكراً.

فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:1]، فُقدِّم الفعل.

أُجيب: بأنّه في مقام القراءة وتعليمها، لأنّها أوّلُ سورةٍ نزلت، فكان الأمر بالقراءة أهمّ باعتبار هذا العارض، وإن كان ذكر الله تعالى أهمّ في نفسه"[2].

وقد بيّن ذلك أيضاً في توجيهه لتقدّم الظرف أو الجارّ والمجرور على عامله وبأنّه قد أفاد الاختصاص؛ ومنه ما جاء في تفسيره قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: 1]، فيقول: " وقدّم الظرفين ليدلّ بتقديمها على معنى اختصاص الملك والحمد بالله تعالى؛ وذلك بأنّ الملك على الحقيقة له؛ لأنّه مبدئُ كلّ شيءٍ ومبدعه"[3].

ومنه تقديم الجارّ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22– 23]، فيقول: "وقدّم الجارّ الدالّ على الاختصاص إلى أنّ هذا النظر مباينٌ للنظر إلى غيره، فلا يعدّ ذلك نظراً بالنسبة إليه"[4].

2– الأهمّيّة في النفس أو في الترتيب الزمني: يدرك الخطيب الشربيني أنّ النصّ القرآني قد يعدل عما كان يجب أن يكون في الأصول النظريّة لغرض بلاغي، فالظرف صلة، لكنّه قد يُقدّم للأهمية في النفس، وعليه خرّج التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4]، فقال: "وكان الأصل أن يؤخّر الظرف؛ لأنّه صلةٌ لكن لمّا كان المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى قُدّم تقديماً للأهمّ"[5].

وسبقه إلى هذه النكتة البلاغية الزمخشري مسهباً في تفصيل البلاغة من تقديم الظرف فيقول: " فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد نصّ سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله مقدّماً في أفصح كلام وأعربه؟ قلت: هذا الكلام إنّما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه؛ وهذا المعنى مصبّه ومركزه هو هذا الظرف، فكان لذلك أهمّ شيء وأعناه وأحقّه بالتقدّم وأحراه" [6].

---

[1] ينظر: معاني النحو 150/1.

[2] السراج المنير 1/ 12– 13، ينظر رأي الرازي في: مفاتيح الغيب 1/ 108– 109.

[3] السراج المنير 4/ 322.

[4] المصدر نفسه 4/ 497.

[5] المصدر نفسه 4/ 714.

[6] الكشاف 6/ 461، ينظر رأي سيبويه في الكتاب 56/1.

وقد بيّن الشربيني أهمّيّة التقديم في نفس القارئ حيث أفاد هذا الأسلوب إزالة الوهم والشكّ الذي يعتري نفس الإنسان، فأشار إلى ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾؛ يقول الشربيني: " قال الزمخشري: وقدم المفعول ليذهب الوهم في فاعله كلّ مذهب"[1]

ونلمح من هذه الشواهد مدى تأثّر الشربيني بالزمخشري، فهو ينقل عنه مشيراً إلى ذلك بذكر اسمه تارة أو مغفلاً إياه تارة أخرى، إلا أنّ عبارات الخطيب الشربيني كانت أشدّ اختصاراً من غير خلل في المعاني.

وقد يكون التقديم للدلالة على أهمّيّة التسلسل الزمني لقصّة معيّنة، ومن ذلك ما وجّهه الشربينيّ لتقديم الظرف في قول الله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: 16]، فقال: " (ولولا إذ سمعتموه...)؛ فإن قيل: أي فائدةٍ من تقديم الظرف حتّى أُوقع فاصلاً؟.

أُجيب: بأنّ الفائدة فيه بيان أنّه كان الواجب عليهم أن يذبّوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلّم به، فلمّا كان ذكر الوقت أهمّ وجب التقديم"[2].

3– والاهتمام والتعظيم والحصر: إنّ من سنن العرب في كلامها تقديم الجزء الأهمّ في الكلام وتأخير ما دون ذلك، وهذا ما أشار إليه سيبويه حيث قال: "كأنّهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم"[3].

ومن ذلك ما جاء في تقديم المفعول به على عامله في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، فيقول الشربينيّ: " فإن قيل: لمَ قدّم المفعول؟

أُجيب: بأنّ تقديمه للتعظيم وللاهتمام به والدلالة على الحصر"[4].

ومن ذلك ما نقله الخطيب الشربينيّ عن الرازيّ لدلالة الأهمّيّة التقديم والتأخير في المفعول به – وقد أشار الذهبيّ إلى كثرة نقول الشربيني عن الرازيّ– البدء بالأهمّ والأقرب فالأقرب؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ [الأحزاب: 26]، فيقول الشربينيّ: " فإن قيل: ما فائدة تقديم المفعول في الأوّل، فقال تعالى: (فريقاً تقتلون)، وتأخيره في الثاني، حيث قال: (وتأسرون فريقاً).

أُجيب بأنّ الرازيّ قال: ما من شيءٍ من القرآن إلّا وله فائدةٌ، منها ما يَظهر، ومنها ما لا يَظهر، والذي يَظهر من هذا والله أعلم؛ أنّ القائل يبدأ بالأهمّ فالأهمّ والأقرب فالأقرب والرجال كانوا مشهورين، وكان القتل وارداً عليهم، وكان الأسراء هم النساء والذراري ولم يكونوا مشهورين.

والسبي والأسر أظهرُ من القتل؛ لأنّه يبقى، فيَظهر لكلّ واحدٍ أنّه أسيرٌ، فقدّم في المحلّين ما اشتهر على الفعل القائم به، ومن الفعلين ما هو أشهر قدّمه على المحلّ الخفي"[5] .

وفي موضع آخر يشير إلى أهمّيّة التقديم بين العناصر النحوية مستشهداً بقول الزمخشري؛ فيقول في قوله تعالى: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾:" وقدّم المفعول من أجله على المفعول به اهتماماً به؛ لأنّه مكافح لهم بأنّهم على إفك وباطل وبهذا الوجه بدأ الزمخشري"[6].

---

(1) السراج المنير 655/2، ينظر رأي الزمخشري في الكشاف 249/4.

(2) المصدر نفسه2/ 674، ينظر: البلاغة القرآنية 279.

(3) الكتاب 1/ 34.

(4) السراج المنير1/ 18.

(5) السراج المنير 3/ 302. ينظر رأي الرازي في: مفاتيح الغيب 25/ 205.

(6) المصدر نفسه 465/3. ينظر رأي الزمخشري في الكشاف 216/4.

4- العناية: وقد ورد ذلك في سياق توجيه الخطيب الشربيني لتقديم المفعول به الثاني على الأوّل عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: 43]؛ فيقول: " فإن قيل: لمَ أخّر (هواه)، والأصل قولك: اتّخذ الهوى إلهاً؟

أُجيب: بأنّه ما هو إلّا تقديم المفعول الثاني للعناية؛ كما تقول: علمت منطلقاً زيداً لفضل عنايتك بالمنطلق"[1].

5- إعمال عقل القارئ للتدبّر: وهذا من النكت التي ذكرها الخطيب الشربينيّ في التقديم والتأخير؛ ليبيّن للمتعلّمين والقارئين أهمّيّة الإعراب بمثال بسيط يوضّح فيه الفرق الحاصل بين المعنيين الناتجين من التقديم والتأخير بين الفعل والمفعول به في السياق، وقد نقل ذلك عن الزمخشريّ[2] إلا أنّه لم يشر إلى ذلك النقل؛ عند تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، يقول الشربينيّ: "هل يختلف المعنى إذا قُدّم المفعول في هذا الكلام أو أُخّر؟.

أُجيب: بأنّه يختلف؛ فإنّك إذا قدّمت اسم الله وأخّرت العلماء، كان المعنى: إنّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، فإذا عملت العكس، انقلب المعنى إلى أنّهم لا يخشون إلّا الله، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾[الأحزاب: 39]، وهما معنيان مختلفان"[3].

6- التهويل والترهيب: ينوّع الشربيني في عرضه لدلالات التقديم والتأخير، فيشير إلى فائدة المتأخّر أحياناً بدلاً من غرض التقديم، ومن ذلك ما ذكره لتأخّر الفاعل عن الجار والمجرور من التهويل والترهيب في النفس للاستعداد ليوم الحساب؛ عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء :1]؛ فيقول الشربيني: "وأخّر الفاعل تهويلاً؛ لتذهب النفس في تعيينه كلّ مذهب"[4].

وبعد هذا العرض للجهود التي بذلها الخطيب الشربينيّ للكشف عن معاني التقديم والتأخير بين أركان الجملة في تفسيره لا بدّ من الإشارة إلى موقف قويّ للخطيب الشربينيّ وافق فيه الزمخشريّ، وخالفا فيه عبد القاهر الجُرجانيّ[5] في هذا الباب؛ وذلك أنّ الزمخشريّ يرى أنّ التقديم لا يجب أن يكون لمعنى وفائدةٍ في كلّ موضعٍ[6]، وقد بيّن الخطيب الشربينيّ ذلك في تفسيره؛ حيثُ يُشير إلى التقديم والتأخير من دون أن يذكر الغرض منه.

ومن ذلك توجيهه قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130]، فيقول: قال الحسين بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير؛ تقديره: ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة، وإنّه لمن الصالحين"[7].

ومثله أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف:25]، فقال: " (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة) لم يعرف أنّها أيّامٌ أو شهورٌ أو سنونٌ، فلمّا قال: (سنين) صار هذا بياناً لقوله (ثلاث مائة)؛ فكان ذلك عطف بيان له.

وقيل هو على التقديم والتأخير؛ أي: لبثوا سنين ثلاث مائة"[8].

---

[1] السراج المنير 3/ 23.

[2] الكشّاف 5/ 154.

[3] السراج المنير 3/ 399.

[4] المصدر نفسه 547/2.

[5] ينظر: دلائل الإعجاز 110.

[6] الكشّاف 3/ 152، ينظر موقف الزمخشري في: البلاغة القرآنية 287–288.

[7] السراج المنير 1/ 108.

[8] المصدر نفسه 2/ 405– 406.

ويذكر ذلك صراحةً في توجيه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يُونُس:61]، فيقول: " فإن قيل: لمَ قُدّم ذكرُ الأرض على السماء، وقدّم ذكر السماء على الأرض في سورة سبأ فقال تعالى: " ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ:3]، فما فائدة ذلك؟ أُجيب: بأنّ الكلام هنا في حال أهلها، والمقصود منه هو البرهان على إحاطة علمه، على أنّ العطف بالواو وحكمه حكم التثنية"[1].

وقد وافق بهذا رأي الزمخشريّ في الآية محلّ الدراسة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النحل: 1]، فإن قلت ما الفرق بين هذا وبين قوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: 1]، قلت لا فرقَ بينهما إلّا ما في المعطوف من التقدّم والتأخّر، وذلك على ضربين؛ ضربٌ جارٍ مجرى التثنية لا يترجّح فيه جانب العطف على جانبٍ، وضربٌ فيه ترجّحٌ"[2].

وللخطيب الشربينيّ رأي يُوافق فيه الجُرجانيّ في أنّ التقديم لا بدّ له من فائدةٍ، فيقول ناقلاً رأي الرازيّ: ما من شيءٍ من القرآن إلّا وله فائدةٌ، منها ما يَظهر، ومنها ما لا يَظهر[3]، وبهذا يتّضح أنّ الخطيب الشربينيّ قد وافق الزمخشريّ في أنّه لا يجب للتقديم أن يكون له فائدةٌ، وفي موضعٍ آخرٍ اختار رأي الجُرجانيّ في أنّه لا بدّ للتقديم والتأخير من فائدةٍ قد تظهر، وقد تُخفى، وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على مدى اهتمام المفسّرين لكتاب الله تعالى بعلم المعاني عموماً والتقديم والتأخير خاصّة كأدوات تسهّل من ثقل المادّة النحويّة، وتقرّبها للأذهان من خلال ربط اختلاف الإعراب من حيث التقديم والتأخير بالمعنى الذي يناسب سياق الآيات، ولكن هذا لا يلغي التكلّف الحاصل من إظهار معان للتقديم والتأخير للّيّ عنق النصّ ليناسب الوجه النحويّ الذي يرجّحونه، وهذا ما تبيّن من اختلاف وجهة نظر الخطيب الشربيني من أنّ للتقديم والتأخير معنى وفائدة في كل موضع، ثمّ ما لبث أنّ اختار نقيض هذا الرأي متّبعاً مذهب الزمخشريّ.

يمكننا القول بعد هذه النكت واللطائف التي بيّنها الخطيب الشربيني من توجيهاته النحويّة وربطها بالتقديم والتأخير بين أركان الجملة، إنّ الشربيني قد وعى الأسرار الكامنة في النظم القرآنيّ، والمعاني الخفيّة التي اكتنفها، والدلالات المستقاة من تلك التراكيب والصيغ النحويّة التي تضمّنها، فهو قد أدرك الصلة بين النحو والتقديم والتأخير، وأنّ كلاً منهما يتمّم الآخر، فلا يمكننا الفصل بينهما، وهذا ما أثبته الجرجاني في كتابه حينما كان يشير بين الفينة والأخرى إلى ما نثره النحاة في كتبهم من أسرار المعاني في التراكيب النحويّة، وكيف استطاع استخلاص المعاني لتصبح أصلاً لا يقلّ شأناً عن المادّة النحويّة، وما قدّمه الخطيب الشربيني ما هو إلا فهم عميق لما أسّسه الجرجاني، وإن كان الخطيب الشربيني قد أكثر النقل عن الزمخشري إلا أنّنا لا نبخسه قيمة الجهد الكبير الذي قدّمه، فهو قد تفرّد وأجاد بأسلوب يفوق الزمخشري في بعض المواضع، حيث كان له أسلوب مختصر في تبيين معاني الآيات ولا سيما في المواضع التي يعنى فيها بالتقديم والتأخير النحوي؛ مما جعل القراءة في تفسيره أكثر سهولة ويسراً؛ لقربها من أذهان القارئين في زمنه.

النتائج:

1– إنّ ربط التقديم والتأخير بالنحو منهج سلكه المفسرون لكتاب الله تعالى، ومن أبرزهم الزمخشري، وقد تبعه الإمام الشربيني في ذلك .

2– من أبرز معاني التقديم والتأخير التي ذكرها الخطيب الشربيني عند إعرابه للآيات الاختصاص والحصر.

---

[1] المصدر نفسه 2/ 30– 31.

[2] المصدر نفسه 4/ 429.

[3] ينظر: السراج المنير 3/ 302 ، ورأي الرازي في: مفاتيح الغيب 25/ 205.

3–جاءت توجيهات الإمام الشربيني متمّمة لجهود من سبقه من النحاة والمفسرين حيث أبرز أهمية التقديم والتأخير في النحو من خلال تسهيل وتقريب الإعراب على القارئين والدارسين لكتاب الله تعالى بربطه بالمعنى.

4– استطاع الخطيب الشربيني أن يوضح غاية النحو الحقيقيّة ليست معرفة الصواب والخطأ في ضبط أواخر الكلمات فحسب، وإنّما القصد منه هو معرفة صحيح المعاني من فاسدها من خلال تقديم بعض الكلمات على بعض .

5– لم يخرج الخطيب الشربيني في جلّ توجيهاته النحوية التي ترتبط بالتقديم والتأخير عن رأي الزمخشري إلا ما ندر .

6– تبنّى الخطيب الشربيني رأي الزمخشري حيث ذكر في بعض المواضع أنّ التقديم والتأخير ليس له غرض أو فائدة في السياق.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم .
- أثر التقديم والتأخير في المعنى عند النحويين، لطفي عمر بن الشيخ أبو بكر، جامعة حضرموت، اليمن، د. ت .
- أثر المعنى النحوي في توجيه المعنى البلاغي، إعداد: فاطمة شرشم، نصيرة حميشي، تسعديت بويزري، 2014–2015م.
- الأوجه البلاغية والدلالية في تفسير الكشاف للزمخشري، رسالة ماجستير، زاهرة توفيق أبو كشك، جامعة مؤتة، الأردن، 2002م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح : محمد أبو الفضل، دار التراث، القاهرة .
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، محمد حسنين أبو موسى، جامعة الأزهر، دار الفكر العربي، القاهرة .
- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، دار نوبار، القاهرة، ط1 ، 1994 .
- التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض.
- تفسير الفخر الرازيّ المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب: محمد الرازي، ط (1)، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1401هـ، 1981م، ج1.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تح: محمّد علي النجار، المكتبة العلميّة، دار الكتب المصرية.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمّد شاكر.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربّنا العليم الخبير: محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، تح: إبراهيم شمس الدين، ط (2)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2017م.
- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المكتبة الشاملة.
- الكتاب: سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تح: عبد السلام محمد هارون، ط (3)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1408هـ–1988م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض وشارك في تحقيقه: فتحي عبد الرحمن أحمد حجازيّ، ط (1)، مكتبة العبيكان، الرياض، 1418هـ، 1998م.
- لسان العرب، محمّد بن مكرم، ابن منظور، دار صادر، بيروت،(د. ط)، (د. ت).
- معاني النحو، فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، ط1، 2000م.

- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر .
- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1 ، 1996 م .